كيف حاولت أن أكون خطيباً

للأســـتاذ زهدى الشواف

إنها محاولة لا أذكرها الآن إلا ضحكت من نفسى ... فلقد كانت نزوة من نزوات الشباب الطائش ، وهفوة من هفوات العاطفة الجموح ... وما أكثر ما تخطىء العاطفة ، وما أكثر ما تزل بالمرء فى مزالق السخف ! .. ولو قُدر لنا أن نتحرر من ربقتها لبرئنا من الضحك من أنفسنا ، ولترفعنا عن كثير من المهازل التى تتمثل على مسرح الحياة .

لقد عينتنى وزارة المعارف معلماً فى مدرسة ابتدائية فبادرت للعمل فرحاً ، ولم أكد أدخل الصف حتى ألفيت نفسى بين حشد من الأطفال لا يحصيهم عد ... لقد كانوا لحداثة عهدهم بالمدرسة أشبه بالهاوة الناشزة التى لم تروض على الركوب ، وكانوا مزيجاً غريباً من طبقات اجتماعية مختلفة ، متفاوتين فهما وخلقاً وإدراكا

وما إن رأونى مقبلا عليهم حتى سكتوا لحظة ، ثم راحوا يتطاولون بأعناقهم فينظرون إلى . وبعد هنيهة عادوا إلى حديثهم وعكفوا على لهوهم ، كأنى لم أحل بينهم أو كأنهم فى ساحة البلد لا تجمعهم مدرسة ولا يهيمن عليهم نظام . ولقد فكرت فى العصا ولكن التعاليم التربوية الحديثة تقول « إن الضرب ممنوع فى المدارس ... » نعم إن الضرب ممنوع لأنه ينافى التعاليم التربوية ولكن حشر مائة طالب فى غرفة واحدة لا ينافيها ! . هذا هو فهمنا للتعاليم ! .. وهذا هو مدى تطبيقنا إياها ! ...

وقد حاولت تأمين النظام بكل ما أوتيت من حكمة ولكن جهودى كلها ذهبت عبثاً . وأنى لى أن أفلح والطلاب منصرفون عنى . فهم بين جالس على مقعد ، ومطجع على حصير ، وواقف خلف « درف » الشباك ... إن المقاعد لم تكن لتسعهم كلهم ... فما ذنبهم ؟.. وما ذنبى ؟...

لقد أتيت المدرسة مزوداً بالتعاليم الحديثة مشبعاً بالأفكار المثالية ولكن ما أسرع ما وجدت أن تلك التعاليم ظل لا حقيقة له ، وأن هذه الأفكار بعيدة عن متناول اليد بعد السماء عن الأرض .

وانتصفت الساعة الأولى وأنا حائر فى أمرى لا أجد مخرجاً مما أنا فيه . فلما يئست من إصلاحهم وكنت للحيلة ، وذكرت أنى كنت رأيت قبيل مجيئى للمدرسة أناساً التفوا حول خطيب يتكلم بصوت جهورى ، وذكرت أنهم كانوا يصغون إليه هادئين صامتين فأحببت أن أقلد هذا الخطيب لعلى أظفر بهدوء الطلاب وصمتهم . فصعدت المنبر وانطلقت أتكلم بصوت جهورى : « أيها الطلاب ! ... » ولم أكد أنبس بأول كلمة حتى صمتوا وتوجهوا إلى بأنظارهم وأفكارهم ... يالله المعجزة ! ... لقد نجحت طريقتى على ما فيها من سخف !.. لقد عرفت لأول مرة أن النجاح فى الحياة قد يقوم على السخف والتدجيل أكثر من أن يقوم على العبقرية ... لقد توارت التعاليم التربوية أمام التعاليم السوقية ، وتلاشت الأفكار المثالية أمام الأفكار الصحفية ، واصطنع السخف ما لم يستطع العقل له صنعاً .

وراحت الكلمات تنبعث من فمى كالرعد والأطفال صامتون . وما أدرى أصمتوا متأثرين ببلاغتى ، أم سكتوا دهشين لرؤيتى أتكلم بكلام مستغلق لا معنى له . ومهما يكن فى الأمر من شىء فقد أغرانى هدوءهم فاسترسلت فى الخطابة حتى نسيت أنى فى الصف وتملكنى الحماس فرحت أقرع الطاولة بيدى ... ويبدو أن صدى صوتى قد ملأ أرجاء المدرسة فبادر المعلمون لاستطلاع الخبر ولكنهم لم يجسروا على فتح الباب وإنما لبثوا خلفه يسترقون السمع

ولقد أنصتوا وأنصتوا ولكنهم لم يفهموا شيئاً . وأنى لهم أن يفهموا كلاماً مزج الأدب بالتربية ، وخلط العلم بالفن ، فأصبح لا تربط بين أجزائه رابطة ، ولا تقوم بين عناصره علاقة ... إنى لم أترك كلمة أحفظها « لوليم جيمس » إلا أتيت عليها . ولم أدع بيتاً أرويه للمتنبى إلا ذكرته . ولقد كان لقوانين الكيمياء والفيزياء النصيب الأوفى من محاضرتى فإنى كنت لا أزال حديث

الأحداث أسرع من لمحات البرق فى السحاب المتراكب ، فليبادر إلى الخير مبادرة من عرف وجه الحق فلم يحجم به عن الجهاد خوف ولا فزع ولا إرهاب . إن عمل الحاخام الأكبر هو « الحد الفاصل » الذى ينتظره اليوم أربعمائة مليون مسلم قد استيقظوا وأدركوا أن يهود العالم قد أعلنوا عليهم الحرب ، فلن يخدعهم بعد اليوم شىء عن الطريق الذى سار فيه آباؤهم من قبل ، فنصرهم الله وأيدهم وهزم أعداءهم وأعلى كلمتهم وجعلهم خير أمة أخرجت للناس .

محمود محمد شاكر

المهد بها أحفظها عن ظهر قلب ...

وبينا أنا عاكف على إغراق طلابى فى بحار العلم والحكمة ، رفع أحدهم أصبعه فما كان منى إلا أن صحت به : « مالك ؟ » فقال بأصبعه وبعينه نحو الباب ... فالتفت ... ويا لهول ما رأيت ... ويا للخجل !.. إنهم الملمون .

وماتت الكلمات على شفتى فجأة ... لقد صحوت من النشوة التى كانت تمتادنى . ونزلت من عالم الوهم إلى عالم الحقيقة المرة ... يا إلهى أين كنت ؟ ...

وبادرنى أحد الزملاء قائلا : « لقد انتهى الدرس » فأمرت الطلاب بالخروج من الصف ثم انضممت إلى المعلمين ولم أترك لهم مجال النقد وإنما رحت أوهمهم بأن ما قمت به إن هو إلا تطبيق لقاعدة تربوية مشهورة ابتدعها المربى الكبير « أوغست كونت » وما سمع زملائى الأكارم بهذا الاسم حتى شرعوا يثنون على ويطرون طريقته هذه ... وإنى أعترف الآن أن الحظ ساعفنى فى تلك اللحظة فاستطعت أن أخرج من هذا المأزق الحرج ناصع الجبين ، محاطاً بهالة من إعجاب الزملاء والطلاب ... ولكنى خرجت من المدرسة ولم أعد إليها ، وما زال معلموها — أحسن الله إليهم — يذكرون اسمى مقرونا بالثناء المطر ، وما زال طلابها — وقد أصبحوا شباباً — يرون أنى المثال الذى يقتدى به علماً وأدباً

لقد خرجت من المدرسة ولم أعد إليها . ومرت بى الأيام مراحى شتى فغيرت من طبيعة عملى ولكنها لم تستطع أن تتطرق إلى فكرة بقيت كامنة فى قرارة نفسى ، تلك الفكرة هى : « أنى خلقت خطيباً ... فيجب أن أكون خطيباً ... »

ومرت أيام وأيام أصبحت بعدها محامياً فوجدت أن الخطابة أصبحت من لوازم مهنتى ولقيت الفرصة مناسبة « لإظهار مواهبى » ثم أدركنى ما يدرك كل محام ناشىء فى « حماه » ففكرت بأننى قد درست المحاماة لا لأكون محامياً فحسب ، بل لأكون نائباً أدافع عن حقوق الشعب تحت قبة البرلمان .

وكيف لا أطمع فى النيابة وقد رأيت جارى « أبا نادر » زعيما يتصدر مجلس الحى ويبحث فى قانون روسيا ويناقشه ، ثم يحمل على أمريكا وينتقد دستورها وسياستها . « وأبو نادر » أمى يجهل حتى موقع روسيا على الخارطة ، ولا يعرف عن أمريكا إلا أنها البلد الذى كان يهاجر إليه السوريون لكسب الرزق ... لقد قرنت نفسى « بأبى نادر » فوجدت أنى أكثر منه أهلية وكفاية فأخذت أعد للزعامة عدتها فرحت أحترم الكبير وأعطف على

الصغير وأحيى كل مار أصادفه فى الطريق ، وأغشى كل ندى وأزور كل سامر ... إنها مهمة شاقة ولكنها الوسيلة الوحيدة للزعامة فى هذا البلد .

وشعرت بحاجتى للخطابة ، وعاودنى الحنين إليها . وما إن خطبت مرة واحدة حتى أصبحت المجالس تشتاق لسماع صوتى . وأضحى القوم يشيرون إلىّ بالبنان ويعدوننى مجاهداً ... ما أعظم هذا اللقب !.. وما أرخصه فى هذا البلد !.. إنى — شهد الله — لم أحمل عصاً ولم أرم حجراً ، ولكنه لقب ساقه إلىّ القدر كما ساقه لغيرى ، فلم لا أفيدُ منه ، ولم لا أنتفع ببركاته . إن خطبة واحدة جعلتنى مجاهداً ، فكيف بى لو خطبت كثيراً ... إنى سأكون فى عداد الزعماء الخالدين ...

إن الكلام رأس مال الزعماء ، فلم لا أكون من أهل الكلام ؟ هذه حقيقة أيقنت بها فأحببت أن أروض نفسى على الخطابة ورحت أفتش عن مكان خال من الناس ، ناء عن المدينة ، فلم أجد خيراً من قبة « البرناوى » القائمة على مسافة كيلو متر من شمالى حماه الغربى ، على سفح منحدر ينتهى بطريق ضيقة تؤدى إلى البساتين النائمة فى أحضان « العاصى » .

وهناك كنت أقضى الآصال هانئاً بالوحدة ، ناعماً بمنظر الخضرة والماء . . وكنت أخطب فأطيل ولا أمل ؛ ويتملكنى الحماس فأرغى وأزبد ، ولا أجد من يسمع صوتى غير البقرات العائدات من البساتين ، وقد رحن يمشين مشياً وئيداً فى الطريق الضيقة فى أسفل المنحدر وخلفهن بعض القرويين التعساء ... وكن إذا ما مررن من أمامى بعيداً عنى وسمعن صوتى يقفن قليلاً وعلن بعنقهن نحوى ثم يهززن رءوسهن ويعدن لسيرهن فيخيل إلىّ أنهن يقلن لى : « إذا أصبحت نائباً فأرخص لنا الشعير ... » فأجيبهن : « نعم سأرخص لكنّ الشعير أيتها البقرات العزيزات !... »

وقد ملكت الخطابة نفسى فأصبحت وكلامى كله يكاد يكون خطابة .. واتفق أن رجعت ذات مساء إلى البيت ودخلت غرفتى وأغلقت الباب وشرعت أخطب .. وما هى إلا لحظات حتى انفتح الباب ودخلت أمى والدموع تملأ عينيها : « سلم الله عقلك !.. ماذا أصابك يا بنى !. » فلزمت الصمت ولم أحر جواباً .. ولكنها أردفت قائلة : « أريد أن تكون كجارنا أبى رشيد ... » وخيم الصمت علينا ثم انسحبت من الغرفة وأغلقت وراءها الباب . ولم أكد أخلو إلى نفسى حتى فكرت فيما قالته أمى .. وأصغيت قليلا

فإذا بصوت جارنا « أبي رشيد » يخترق الظلام ويطرق سمعي .
مسكين أبو رشيد !.. لقد مر عليه شهران والأغلال تلازم يديه والقيود تثقل رجليه .. إنهم يقولون إن به مساً من الجنون . إنه لم يؤذ جاراً ولم يضر إنساناً ولكن أبناءه بصروا به يخطب في الشوارع والأسواق فاقتادوه إلى بيته وحبسوه في غرفته ... لقد بح صوته وهو يقول أن ليس به جنون . ولكن ما من سامع ! واختنق وهو يدعو للأخلاق القويمة .. ولكن ما من يطيع !.
وهـذا صوته يصل إلى أذني ضئيلا وهو ينادي : « أيها القوم ! الدين لله والوطن للجميع ! . إن بناء الوطن لا يقوم على الطين والأحجار ولكن على المهج والأكباد .. المصلحة العامة رائدنا ونجاح الأمة غايتنا .. »

ما أعذب هذه الكلمات ! . لقد طالما سمعتها تتردد في كل مكان وعلى كل شفة ، يا للعجب ! . . هذه الكلمات التي رفعت أناساً إلى مصاف الزعماء والقادة تنحدر بأبي رشيد إلى ظلام غرفته ووحشتها ... ورحت أفكر طويلا في أمر أبي رشيد !..
مسكين أبو رشيد !.. لقد حكمت عليه الهيئة الاجتماعية بالجنون ولا ذنب له غير الدعوة إلى الأخلاق القويمة .. ومن يعلم ؟ . لعل بين جنبي أبي رشيد نفساً أجدر بالزعامة من كثير من النفوس التي تتبوأ عرش الزعامة ، ولكن الهيئة الاجتماعية حكمت عليه بالجنون فكان مجنوناً . لقد كانت مقاييس الجنون طبية بحتة ، ولكن المجتمع جعلها اجتماعية بحتة تخلق من الحمق قادة ، وتجعل من العقلاء مجانين .

وكان الليل قد انتصف فاضطجعت في فراشي وصورة « أبي رشيد » لا تبارح خيالي ، وصوته لا ينفك يطرق مسمعي ضئيلا ضعيفاً . ونمت وقد عولت على ترك الخطابة .. ونمت وقد شيعت كل آمالي وأحلامي ..

وما أشرقت شمس النهار حتى كنت أنهض من فراشي ... وما مالت الشمس للغروب حتى كنت أدرج إلى « البرناوي » لأنقع غليل بالخطابة ... لقد سلوت أبا رشيد ، ونسيت العظة البالغة التي حملها إليّ صوته في الليلة البارحة ... لقد مضت تلك العظة مع الليل وما كان لإنسان أن يتعظ بما فات . .

ووقفت على المنحدر كسابق عهدي أرسل الجمل متتالية ، والكلمات متداخلة حتى شعرت أن الأرض تهتز من وقع كلامي ورأيت أن الأشجار تمايل في أقصى البستان من هول خطابي . ولقد تملكني الحماس فرحت أكثر من الإشارات . ونشأت أضرب الأرض برجلي . وفجأة شعرت بيد قوية تضغط على كتفي والتفت فإذا بمسدسين مصوبين إلى رأسي ، وإذا أنا أمام اثنين من رجال الشرطة الأشداء يتقدمان إليّ ويحاولان إلقاء القبض عليّ ولقد سدت المفاجأة عليّ منافذ التفكير فلم أعد أدري ما أصنع ، وهممت بالابتعاد عن الشرطيين ولكنهما صاحا بصوت واحد ,
— حذار أن تتحرك وإلا قتلناك ! ..
— وعلام ذلك . وما هذه المعاملة الشاذة !. احترموا الناس أنا محام .. أنا أستاذ .. أنا ..
— محام .. أستاذ .. هذا ما يخيله لك الجنون ! ..
— الجنون . . .
— اخرس وإلا قتلناك ! ...
ولما أبصرت الجد في كلامهما ، ورأيت أن من العبث مناقشتهما لزمت الصمت وانقدت إليهما فضربا على يديّ بالوثاق ورحنا نحث الخطى إلى مخفر « الحمدنين »
ودخلنا المخفر مع الليل ، ولم تتخط العتبة حتى كنا أمام المأمور « القومسير » ولقد كان هذا يعرفني معرفة تامة فلم يكد يراني حتى انتصب واقفاً ونظر إلى رجاله مشدوهاً ، وقلب يديه مستفهماً عن السر في القبض عليّ . فأجابه أحد رجاله :
— إنه يدعي أنه محام ... وأنه أستاذ ...
— من يكون إذاً ؟ ...
— إنه المجنون الذي أرسلتنا بطلبه ، المجنون الذي روّع المارة في سفح البرناوي هذا الصباح بما كان يلقيه عليهم من حجارة
تألم « القومسير » لهذه الكلمات وارتسم الألم على محياه . ثم أسرع إلى الوثاق فحله وراح يستعذر إليّ عن فعل رجاله ، والتفت إليهما يؤنبهما .. وما ينفع الاعتذار ! . وما يجدي التأنيب !. لقد كان ما كان ، وشدت يداي بالوثاق ، وأخذت كما يؤخذ المجرمون والمجانين ... لقد خرجت من المخفر وأنا لا أعي ما أصنع ... لقد كانت الصدمة أليمة أنستني الخطابة ، وزهدتني في النيابة . ولم يدر أحد بما أصابني فقد كتم رجال الشرطة — على غير عادتهم — الأمر ولقد كانت الطريق التي جزناها من البرناوي إلى المخفر مقفرة من المارة .. وإني لا أزال أحمد الله كثيراً على أن الخبر لم ينتشر وإلا رغب الطامحون عن الخطابة كما رغبت ، وزهد المغرمون بالنيابة كما زهدت ، ولأمست حماه لا تسمع لخطيب صوتاً ولا ترى لنائب وجهاً

حماه (سوريا) زهدي الشواف